

المحاضرة الخامسة في مادة السيرة النبوية

سياسة المفاوضات

جاء فيما يرويه ابن هشام عن ابن اسحاق أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً ذا بصيرة ورأي في قومه - قال في نادي قريش : يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ فقالوا بلى يا أبا الوليد : قم إليه فكلمه، فجاء عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكانة في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال يا ابن أخي : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .

فقال له رسول الله ﷺ : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم قال فاسمع مني ، ثم قال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذيرا، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليهم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه، وويل للمشركين ﴿ ثم مضى رسول الله في القراءة وعتبة يسمع حتى وصل إلى قول الله تعالى ﴿ فَإِنْ أَرْضُوا فَقَدْ أَنْذَرْتُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ ﴾ فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن القراءة، وذلك خوفا مما تضمنته الآية من تهديد. ثم عاد عتبة إلى أصحابه فلما جلس بينهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورأيي أنني سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش : أطيعوني واخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

وروى الطبري وابن كثير وغيرهما أن نفرا من المشركين فيهم الوليد بن المغيرة و العاص بن وائل جاؤوا فعرضوا على رسول الله ﷺ أن يعطوه من المال حتى يكون أغناهم وأن يزوجه أجمل أبكارهم على أن يترك شتم آلهتهم وتسفيه عاداتهم، فلما رفض إلا الدعوة إلى الحق الذي بعث به، قالوا : فتعبد آلهتنا يوما ونعبد إلهك يوماً ، فرفض ذلك أيضا ونزل تعليقا على ذلك قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين ﴾ .

ثم أن أشراف قريش عادوا فكرروا المحاولة التي قام بها عتبة بن ربيعة فذهبوا إليه مجتمعين، وعرضوا عليه الزعامة و المال، وعرضوا عليه الطب إن كان هذا الذي يأتيه رثيا من الجن، فقال لهم رسول الله ﷺ : " ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم " .

فقالوا له : فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيّق بلداً ولا أقل ماءً ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليفجر لنا أنهاراً كأنهار الشام و العراق وليبعث لنا من مضي من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل، وليجعل لك جناحاً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي فإن صنعت ما سألتك صدقناك و عرفنا منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا كما تقول .

فقال لهم : ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا .
ثم إنهم قالوا له - بعد طول كلام وخصام - : إنا قد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا، رجل في اليمامة يقال له : الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرتنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلك أو تهلكنا . ثم قاموا وانصرفوا عنه .

الحصار الإقتصادي

ورد بأسانيد مختلفة عن موسى بن عقبة وعن ابن اسحاق وعن غيرهما، أن كفار قريش أجمعوا أمرهم على قتل رسول الله ﷺ، وكلموا في ذلك بني هاشم وبني المطلب، ولكنهم أبوا تسليمه ﷺ إليهم. فلما عجزت قريش عن قتله ﷺ أجمعوا على منابذته و منابذة من معه من المسلمين ومن يحميه من بني هاشم وبني المطلب، فكتبوا بذلك كتاباً تعاقدوا فيه على ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رافة، حتى يسلم بنو المطلب رسول الله ﷺ إليهم للقتل، وعلقوا الكتاب في جوف الكعبة . والتزم كفار قريش بهذا الكتاب ثلاث سنوات، بدءاً من المحرم سنة سبع من البعثة إلى السنة العاشرة منها، وقيل بل استمر ذلك سنتين فقط .

ورواية موسى بن عقبة تدل على أن ذلك كان قبل أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وإنما أمرهم بها أثناء هذا الحصار. أما رواية ابن اسحاق فتدل على أن كتابة الصحيفة كانت بعد هجرة أصحابه ﷺ إلى الحبشة وبعد إسلام عمر .
وحاصر بنو هاشم وبنو المطلب ومن معهم من المسلمين، ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب بني المطلب، وإنما مكة شعاب متفرقة، واجتمع فيه من بني هاشم وبنو المطلب المسلمون و الكافرون، أما المسلمون فتديناً وأما الكافرون فحمية، إلا ما كان من أبي لهب، عبد العزى بن عبد المطلب، فإنه خرج إلى قريش فظاهر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

فجهد النبي ﷺ و المسلمون جهداً شديداً في هذه الأعوام الثلاثة واشتد عليهم البلاء، وفي الصحيح أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر . وذكر السهيلي أنهم كانوا إذا قدمت العير مكة، يأتي أحد أصحاب رسول الله إلى السوق ليشتري شيئاً من الطعام يقاته لأهله، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً، حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يده شيء يعطهم به .

فلما كان على رأس ثلاث سنين من بدء هذا الحصار، تلاوم قوم من بني قصي، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه، وأرسل الله على صحيفتهم التي كتب فيها نص المعاهدة الأرضة ، فأنتت على معظم ما فيها من ميثاق وعهد، ولم يسلم من ذلك إلا الكلمات التي فيها ذكر الله عز وجل .

وقد أخبر بذلك رسول ﷺ عمه أبا طالب ، فقال له أبو طالب : أربك أخبرك بذلك ؟ قال: نعم، فمضى في عصابة من قومه إلى قريش، فطلب منهم أن يؤتوه بالصحيفة موهماً إياهم أنه نازل عند شروطهم فجاءوا بها وهي مطوية، فقال أبو طالب : إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني قط، أن الله تعالى قد سلط على صحيفتكم التي كتبتكم الأرضة فأنتت على كل ما كان فيها من جور وقطيعة رحم، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا وارجعوا عن سوء رأيكم، فو الله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلا دفعنا إليكم صاحبنا ففعلتم به ما تشاؤون. فقالوا: قد رضينا بالذي تقول . ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ، فقالوا: هذا سحر ابن أخيك ! وزادهم ذلك بغياً وعدواناً .

ثم إن خمسة من رؤساء المشركين من قريش، مشوا في نقض الصحيفة، وإنهاء هذا الحصار وهم : هشام بن عمرو بن الحارث وزهير ابن أمية والمطعم بن عدي وأبو البختري بن هشام وزمعة ابن الأسود .

وكان أول من سعى إلى نقضها بصريح الدعوة زهير بن أمية ،أقبل على الناس عند الكعبة فقال : يا أهل مكة: أأناكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم و المطلب هلكت لا يباعون ولا يبتاع منهم .. ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، ثم قال بقية الخمسة نحواً من هذا الكلام، ثم قام المطعم بن عدي إلى الصحيفة فمزقها، ثم انطلق هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة ، إلى بني هاشم وبنو المطلب ومن معهم من المسلمين فأمرهم بالخروج إلى مساكنهم .